منهج ابن خلدون في كتابة التاريخ

يعد (ابن خلدون) عبقرية متميزة، فقد كان عالمًا موسوعيًا متعدد المعارف والعلوم، وهو رائد مجدد في كثير من العلوم والفنون، فهو المؤسس الأول لعلم الاجتماع وإمام ومجدد في علم التأريخ، وأحد رواد فن (الأتوبيوجرافيا) ـ فن الترجمة الذاتية ـ كما أنه أحد العلماء الراسخين في علم الحديث، وأحد فقهاء المالكية المعدودين، ومجدد في مجال الدراسات التربوية، وعلم النفس التربوي والتعليمي، كما كانت له إسهامات متميزة في التجديد في أسلوب الكتابة العربية.
ولد (ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خالد (خلدون) الحضرمي) في تونس في غرة رمضان 732هـ، ونشأ في بيت علم ومجد عريق، فحفظ القرآن في وقت مبكر من طفولته، وقد كان أبوه هو معلمه الأول، كما درس على مشاهير علماء عصره، من علماء الأندلس الذين رحلوا إلى تونس بعدما ألم بها من الحوادث، فدرس القراءات وعلوم التفسير والحديث والفقه المالكي، والأصول والتوحيد، كما درس علوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة وأدب، ودرس كذلك علوم المنطق والفلسفة والطبيعية والرياضيات، وكان في جميع تلك العلوم مثار إعجاب أساتذته وشيوخه.
والتحق بوظيفة كتابية في بلاط بني مرين، ولكنها لم تكن لترضي طموحه، وعينه السلطان (أبو عنان) ـ ملك المغرب الأقصى ـ عضوًا في مجلسه العلمي بفاس، فأتيح له أن يعاود الدرس على أعلامها من العلماء والأدباء الذين نزحوا إليها من (تونس) و(الأندلس) و(بلاد المغرب قرر السفر إلى (غرناطة) بالأندلس في أوائل سنة764هـ.عقد العزم على أن يترك شؤون السياسة، ويتفرغ للقراءة والتصنيف.
واتجه (ابن خلدون) بأسرته إلى أصدقائه من (بني عريف)، فأنزلوه بأحد قصورهم في (قلعة ابن سلامة) بمقاطعة ـ(وهران) بالجزائر ـ وقضى (ابن خلدون) مع أهله في ذلك المكان القصي النائي نحو أربعة أعوام، نعم خلالها بالهدوء والاستقرار، وتمكن من تصنيف كتابه المعروف (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، والذي صدره بمقدمته الشهيرة التي تناولت شؤون الاجتماع الإنساني وقوانينه، وقد فرغ (ابن خلدون) من تأليفه وهو في نحو الخامسة والأربعين بعد أن نضجت خبراته، واتسعت معارفه ومشاهداته.
ابن خلدون.. مؤسس
علم الاجتماع
يعد ابن خلدون المنشئ الأول لعلم الاجتماع، وتشهد مقدمته الشهيرة بريادته لهذا العلم، فقد عالج فيها ما يطلق عليه الآن (المظاهر الاجتماعية)ـ أو ما أطلق عليه هو (واقعات العمران البشري)، اعتمد ابن خلدون في بحوثه على ملاحظة ظواهر الاجتماع في الشعوب التي أتيح له الاحتكاك بها، والحياة بين أهلها، وتعقب تلك الظواهر في تاريخ هذه الشعوب نفسها في العصور السابقة.وقد كان (ابن خلدون) ـ في بحوث مقدمته ـ سابقًا لعصره، وتأثر به عدد كبير من علماء الاجتماع الذين جاءوا من بعده مثل: الإيطالي (فيكو)، والألماني (ليسنغ)، والفرنسي (فولتير)، كما تأثر به العلامة الفرنسي الشهير (جان جاك روسو) والعلامة الإنكليزي (مالتس) والعلامة الفرنسي (أوغيست كانط).
أبن خلدون وعلم التأريخ
تبدو أصالة ابن خلدون وتجديده في علم التأريخ واضحة في كتابه الضخم (العبر وديوان المبتدأ والخبر) وتتجلى فيه منهجيته العلمية وعقليته الناقدة والواعية، حيث إنه يستقري الأحداث التأريخية، بطريقة عقلية علمية، فيحققها ويستبعد منها ما يتبين له اختلاقه أو تهافته.أما التجديد الذي نهجه (ابن خلدون) فكان في تنظيم مؤلفه وفق منهج جديد يختلف كثيرًا عن الكتابات التأريخية التي سبقته، فهو لم ينسج على منوالها مرتبًا الأحداث والوقائع وفق السنين على تباعد الأقطار والبلدان، وإنما اتخذ نظامًا جديدًا أكثر دقة، فقد قسم مصنفه إلى عدة كتب، وجعل كل كتاب في عدة فصول متصلة، وتناول تاريخ كل دولة على حدة بشكل متكامل، وهو يتميز عن بعض المؤرخين الذين سبقوه إلى هذا المنهج كالواقدي، والبلاذري، وابن عبد الحكم، والمسعودي بالوضوح والدقة في الترتيب والتبويب، والبراعة في التنسيق والتنظيم والربط بين الأحداث.
الاقليات والعصبيات والصراع على السلطة
يقول ابن خلدون ان البيت والشرف للموالي وأهل الاصطناع إنما هو بمواليهم لا بأنسابهم.. فيصير من هؤلاء ويندرج فيهم فإذا تعددت له الآباء في هذه العصبية كان له بينهم شرف وبيت ولائهم واصطناعهم.. يكون أدون منهم على كل حال.. وحين يذكر ابن خلدون تداول السلطة الذي هو تداول غير سلمي ، بل يتم عن طريق صراع العصبيات من اجل الوصول الى السلطة والرئاسة والملك وفي ذلك يقول أبن خلدون.. فإذا تعين أولئك القائمون بالدولة وانغمسوا في النعيم وغرقوا في بحر الترف والخصب واستبعدوا إخوانهم من ذلك الجيل وانفقوا في وجوه الدولة ومذاهبها وبقي الذين بعدوا عن الأمر وكبحوا عن المشاركة في ظل من عز الدولة التي شاركوها بنسبهم وبمنجاة من الهرم لبعدهم عن الترف وأسبابه فتسموا آمالهم إلى الملك الذي كانوا ممنوعين منه بالقوة الغالبة من جنس عصبيتهم وترفع المنازعة لما عرف من غلبهم فيستولون على الأمر ويصير إليهم.
إن عبارة الأقليات تذكر أولاً بتجزئة مجموعة إلى مجموعتين داخليتين على الأقل تكون احداهما أكثر عدداً من الأخرى أو إذا كان ثمة أكثر من مجموعتين داخليتين أكثر عدداً منهما كلها، وإلى جانب كونها الأكثر عدداً يمكن للأكثرية أن تضيف خصائص أخرى فالأكثر عدداً يمكنهم كذلك ان يكونوا الأقوى وذلك ما يحصل من وجهة نظر سياسية حصراً في الأنظمة الديمقراطية ويمكن أن يحصل على العكس أن يعتبر الأقل عدداً هم الأفضل كما في الأنظمة الارستقراطية.من وجهة النظر هذه تكون الأقليات مقابل الأغلبية تعويضاً يتحصل من وجهة النظر السياسية، وهذا ما يمكن ملاحظته في الفكر الخلدوني، فالأكثر عدداً يمكنهم أن يكونوا الأقوى والأكثرية عند ابن خلدون تتمثل في غلبة العصبية.وفي كل الأحوال ما أن يحصل التمييز بين الأكثرية والأقلية حتى تصبح سلسلتان من الأسئلة، أولاً: هل تنجم التجزئة عن الانقسام، إذا كان الأمر كذلك فإن وحدة المجموعة تكون قد تحطمت وفقاً للتمييزات الكلاسيكية عند "هيرشمان" تواجه الأقليات بثلاث استراتيجيات ممكنة فهي تستطيع بواسطة الولاء أن تبقى في المجموعة وأن تمتثل لإرادة الأكثرية، والثانية: هو خيار بين الانفصال أو المعارضة(3)، وهذه الصياغة ما بين الولاء والمعارضة نجدها عند منظري الأنظمة الديمقراطية.
وابن خلدون جعل من مفهوم الهوية يتمحور في ذلك من خلال الانتماء إلى عصبية الدم، وبالتالي يظل مفهوم العصبية كما جاء عند ابن خلدون محدداً للهوية في التاريخ المعاصر، ان الرئاسة لا تكون إلا بالغلب والغلب إنما يكون بالعصبية فلابد في الرئاسة على القوم أن تكون عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة لأن كل عصبية منهم إذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم أقروا بالإذعان والإتباع والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب.. وغاية التعصب له بالولاء والحلف وذلك لا يوجب له غلباً عليهم البتة وإذا فرضنا انه التحم بهم واختلط فكيف له الرئاسة قبل هذا الالتحام أو لأحد من سلفه والرئاسة على القوم إنما تكون متناقلة في منبت واحد تعين له الغلب بالعصبية ظهوراً آخر لسوسيولوجيا الأقليات في الفكر الخلدوني يرتبط بمفهوم العصبية القائمة على قرابة الدم تتمثل في تصنيفه الاجتماعي للطبقات بتقسيمه المجتمع إلى فئتين أحدهما تمتلك صفات الشرف والأصالة والأخرى هم فئة من أقل حظاً اجتماعياً ويبني أبن خلدون هذه الفكرة والتقسيم بناءً على الحسب والنسب، وفي ذلك إشارة لبناء الأقليات اجتماعياً، ويظهر ذلك في قول أبن خلدون: "ذلك أن الشرف والحسب إنما هو بالخلال ومعنى البيت أن يعد الرجل في آبائه إشرافاً مذكورين يكون له بولادتهم إياه والانتساب إليهم.. ان ثمرة الأنساب وفائدتها إنما هي العصبية للنعرة والتناصر فحيث تكون العصبية مرهوبة المنبت فيها زكي محمي تكون فائدة النسب أوضح.. فيكون الحسب والشرف أصليين في أهل العصبية لوجود ثمرة النسب وتفاوت البيوت في هذا الشرف بتفاوت العصبية

منهج ابن خلدون في دراسة التاريخ

يعد العلامة ابن خلدون مؤرخ إسلامي بارز، تميز منهجه في تناول الأحداث التاريخية بروح التقصي والتحقق مما اكسبه منهجية علمية تميزت بها أبحاثه.وجعلت مقدمته الشهيرة مرجعا أساسي لمن أحب قراءة الحقبة الزمنية التي كتب عنها ابن خلدون.
يعتمد المنهج التاريخي عند ابن خلدون على مجموعة من الأمور هي النظر على التاريخ على أنه علم قائم بذاته له قوانين تحكمه والتاريخ هو خليط لمجموعة من العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي تصنع التاريخ بمجملها.والتاريخ عند ابن خلدون هو أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى،وهو نظر وتحقيق وتعليل للوقائع ومبادئها ،وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها.
وقد تميز البحث التاريخي عنده بما يلي:
1-ملاحظة ظواهر الاجتماع لدى الشعوب التي أتيح له الاحتكاك بها والحياة بين أهلها .
2-تعقب هذه الظواهر في تاريخ الشعوب نفسها في العصور السابقة لعصره
3-تعقب أشباهها في تاريخ شعوب أخرى لم يتم الاحتكاك بها والحياة بين أهلها.
4- الموازنة بين هذه الظواهر جميعا.
5-التأمل في مختلف الظواهر للوقوف على طبائعها وعناصرها الذاتية وصفاتها العرضية واستخلاص قانون تخضع له هذه الظواهر في الفكر السياسي وفلسفة التاريخ وعلم الاجتماع.
ويرى ابن خلدون في مقدمته:
1-أن دراسة التاريخ ضرورية لمعرفة أحوال الأمم وتطور هذه الأحوال بفعل العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية.
2-يركز ابن خلدون على موضوع الاستبداد والبطش الذي يقوم به السلطان ضد شعبه وأثر ذلك في الشعب.
3-يشرح ابن خلدون كيف أن بعض السلاطين ينافسون رعيتهم في الكسب والتجارة.ويسخرون القوانين لخدمة مصالحهم الخاصة وتسلطهم على أموال الناس، وإطلاق يد الجند في الأموال العامة مما يرسخ الشعور بالظلم والإحساس بالحقد لدى الشعب.
4-يوضح ابن خلدون أن هذه العوامل الداخلية هي التي تؤدي إلى الخلل في أحوال الدولة أكثر من العوامل الخارجية.لأن المجتمع الذي يعاني من خلل داخلي لا يستطيع مجابهة عدو خارجي.
5-تمكن ابن خلدون من الربط الدقيق بين العوامل الاقتصادية سابقا بذلك مفكرين أوروبيين بعدة قرون.
6- استوعب ابن خلدون الإرهاصات السابقة في الفكر السياسي لدى الفارابي والماوردي والغزالي وإخوان الصفا والطرطوشي ومسكويه . وصاغ من كل ذلك نظريته في الفكر السياسي وفلسفة التاريخ وعلم الاجتماع.
7- يتضح من قراءة مقدمة ابن خلدون فهمه لفلسفة التاريخ من خلال ثلاث نقاط أساسية:
-أن التاريخ علم وليس مجرد سرد أخبار بلا تدقيق والتمحيص.
-أن هذا العلم ليس منفصلا عن العلوم الأخرى كالسياسة والاقتصاد وعلوم الدين والأدب والفن.
-أن هذا العلم يخضع لقوانين تنتظم بموجبها أحوال الدولة من قوة وضعف ورفعة وانحلال.وقد طبق ابن خلدون هذه النظرية على كتابه "العبر" في سرده للأحداث والتعليق عليها وتحليل نتائجها.
8- يرى ابن خلدون أن الظلم مؤذن بخراب العمران، ويعدد أشكال هذا الظلم من اعتداء على الناس، وتضييق على حرياتهم، وسلب أموالهم، وإضعاف فرص معاشهم وتحصيل رزقهم.والعمران يفسد بفساد العوامل التي تصنعه،والفساد يؤدي إلى الخراب.
9- أن الفساد يؤدي إلى هرم الدولة وشيخوختها ، والهرم من الأمراض المزمنة التي قد تكون طبيعية مع عمر الدول والأفراد.